

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبیب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، سيما خليفة الله في الأرضين، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

دروس في أصول العقائد

(مباحث المعرفة)

الجزء الاول

من حلول لوك لمعضلة المعرفة: الافكار مطابقة للأشياء لأنها وليدة الأشياء

وعن الحل الذي توصل إليه زعيم المدرسة الحسية، جون لوك، لحل معضلة المعرفة التي هي: (إن العقل لا يعرف الأشياء مباشرة، بل من خلال الأفكار التي يحصل عليها عن الأشياء، ولذلك تكون معرفتنا حقيقية بمقدار ما يكون هناك توافق بين أفكارنا وحقيقة (واقع) الأشياء، ولكن ما المعيار الذي نتخذه ها هنا؟ وما دام العقل لا يدرك شيئاً سوى أفكاره الخاصة؟ فكيف نعرف أن أفكاره هذه تطابق الأشياء ذاتها؟)، عن هذا الحل يقول لوك:

(أولاً: إن الأفكار البسيطة مطابقة للأشياء، ذلك لأنها ليست من صنع العقل بل هي ما تولده الأشياء الخارجية من آثار في العقل، وعليه ينبغي أن تطابق الفكرة البسيطة موضوعها، رغم أنها في حالة الأفكار الثانوية لا تشبهها كما وجدنا من قبل "هذا التطابق بين أفكارنا البسيطة ووجود الأشياء كافٍ لجعل معرفتنا حقيقية")^(١).

أقسام الأفكار البسيطة عند لوك

وقبل أن نقوم بتقييم الحل لا بد أن ننقل تعريفه لمفهوم الأفكار البسيطة ومراده منها فانها المحور في البحث كله، إذ يقول مترجم وشارح وملخص كتابه (مقالة في الفهم البشري): (تقع الأفكار البسيطة . عند لوك . في أصناف أربعة:

الصنف الأول: يشمل الأفكار التي نحصل عليها من خلال حاسة واحدة مثل الألوان والأصوات والروائح.

ويتألف **الصنف الثاني:** من الأفكار البسيطة التي يحصل عليها العقل من خلال أكثر من حاسة واحدة مثل المكان أو الامتداد والشكل والحركة والسكون التي تأتي إلينا بواسطة حاستي البصر واللمس.

والصنف الثالث: يشمل الأفكار البسيطة الناشئة من التأمل وهي أفكار "العمليات العقلية حول أفكاره الأخرى" مثل الإدراك والتفكير والإرادة.

وأما **الصنف الرابع** فيشمل الأفكار البسيطة التي تأتي إلى العقل بكل طرق الإحساس والتأمل^(٢) "مثل فكرة اللذة والألم والقوة والوجود والوحدة والتعاقب، ونحن لا نحصل على هذه الأفكار بذاتها بل بصحبة أفكار أخرى تأتيها بواسطة الإحساس أو التأمل. فأفكار اللذة والألم مثلاً تصطبغ كل أفكارنا سواء كانت صادرة من الإحساس أو من التأمل، كما أن أفكار الوجود والوحدة مستوحاة من كل جسم خارجي وكل فكرة داخلية"^(٣)

ثغرات في الحل وإشكالات

(١) An Essay Concerning Human understanding Ibid.IV, ٤, ٤٤, p٢٥٤

(٢) An Essay Concerning Human understanding Ibid.p, ١٢٦

(٣) الفلسفة الحديثة: ص ١٥٨-١٥٩.

ولكن هذا الحل لا يشكل حلاً ويعاني من سلسلة من المعضلات والإشكالات:

هذا الحل مصادرة واستدلال بما يحتاج بنفسه إلى استدلال

أولاً: إن هذا الحل يشكل مصادرة على المطلوب، أو فقل انه من الاستدلال على الشيء بما هو أول الكلام وبما هو بنفسه مورد شك وتساؤل وبما هو في نفسه بحاجة إلى إقامة الدليل عليه، إذ من أين نعلم بأن أفكارنا البسيطة متولدة من الأشياء الخارجية وآثارها؟ أو^(١) من أين نعلم أن أفكارنا هي نفس الآثار التي ولدتها الأشياء الخارجية في العقل؟ وذلك أن الذي يرى حركة الساكن أو سكون المتحرك أو يرى البيضي مدوراً أو المعدوم موجوداً. كالسراب. أو يرى إتصال الخطين المتوازيين أو انكسار العصى أو غير ذلك مما سبق، يعتقد بأن أفكاره هذه متولدة من الأشياء الخارجية أو أن أفكاره هذه هي نفس الآثار التي ولدتها الأشياء الخارجية في ذهنه، فكيف يمكن أن يجعل مقياس معرفتنا هو (الآثار التي تولدها الأشياء الخارجية في العقل)؟ إذ كل مخطئ وكل مختل عقلي وكل مبتلى بأحلام اليقظة وكل نائم حالم فإنه يرى أفكاره قد تولدت عن الأشياء الخارجية أو أنها هي آثار الأشياء الخارجية وأنها انفعال عنها ومرآة لها وعاكسة لها؟

وبعبارة أخرى: أن جوهر كلامه مصادرة على المطلوب إذ هو: أن الأفكار البسيطة مطابقة للأشياء لأنها متولدة عن الأشياء فهي لذلك مطابقة للأشياء! إذ لا طريق لنا إلى معرفة تولدها عن الأشياء ومطابقتها للأشياء إلا دعوى تولدها عنها ومطابقتها لها!
والحاصل: إن قوله (هذا التطابق بين أفكارنا البسيطة ووجود الأشياء كاف لجعل معرفتنا حقيقية) معيارٌ لا معيارية له^(٢) على المسلك الحسي إذ من أين نعلم بهذا التطابق؟ لأن الجاهل بالجهل المركب بمختلف أنواعه يرى التطابق أيضاً؟.

أما على المسلك الحسي - العقلي - الفطري فإن الجواب واضح؛ إذ نقول: إن العقل هو الحاكم بالمطابقة في حالات كثيرة . كالرياضيات والاخلاقيات وكمعظم معلوماتنا عن الحقائق الخارجية من مبصرات وملبوسات وغيرها و كالمكان والامتداد والشكل والحركة والسكون وكالذلة والألم والوجود والتعاقب ونفس الإدراك والتفكير والإرادة^(٣)، والعقل هو الحاكم بأن هذه ليست أحلاماً أو خيالات أو أوهاماً.

وأما الحالات التي يقع العقل فيها في الخطأ فلأسباب أخرى سوف نتحدث عنها لاحقاً وقد فصلنا الحديث عنها في كتاب (المقدمات والضوابط الكلية لضمان الإصابة في الأحكام العقلية). كما ان هنالك ضوابط لتمييز هذه الحالات عن غيرها أيضاً.

والحاصل: إنه من دون الإذعان بحكمية العقل المباشرة لا تحصل لنا معرفة أبداً وإن كانت حواسنا سليمة تماماً وكانت تنقل لنا - ثبوتاً - المعلومات بشكل دقيق أيضاً؛ إذ المعرفة لا تحصل لنا . كما صرح به . إلا إذا علمنا بالتوافق والمطابقة بين الأفكار والأشياء، والتوافق بينها . كما سيأتي . أمر عقلي لا يمكن أن يحكم فيه إلا العقل نفسه وبفسه .

نعم قد يحتاج إلى الاستعانة بالجوارح أو بالتجارب أو الحدس أو غير ذلك وقد لا يحتاج - على تفصيل سيأتي في بحث العقل بإذن الله تعالى .

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

(١) وهذا أدق إذ هو المطابق لكلامه تماماً.

(٢) أي لا معيارية له في عالم الإثبات والمعرفة - والذي هو المبحوث عنه هنا.

(٣) هذه الأمور الاثني عشر الأخيرة هي أمثلة لوك للأفكار البسيطة التي صنفها إلى أربعة أصناف، وأما الرياضيات والاخلاقيات والجواهر وغيرها فقد أدخلها في خانة الأفكار المركبة، وقد ذكرنا في المتن أمثلة من الأفكار المركبة، لأن حكمها واحد والإجابة عنها . حسب تحقيقنا - واحدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبیب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين، سيما خليفة الله في الأرضين، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

دروس في أصول العقائد

(مباحث المعرفة)

الجزء الثاني

الحل دؤري: معرفة الحقيقة تتوقف على معرفة التولد والمطابقة وبالعكس!

ثانياً: إن هذا الحل الذي توصل إليه لو كحل معضلة المعرفة دؤري أي إنه حل المعضلة بأمر يتوقف ذلك الأمر بنفسه على حل تلك المعضلة، فقد حل المعضلة بإجابة تتوقف بذاتها على حل تلك المعضلة!

إذ يقال: لا نعرف الحقيقة إلا بمعرفة التولد والمطابقة ولا نعرف المطابقة والتولد إلا بمعرفة الحقيقة! فتوقفت معرفة الحقيقة على معرفة التولد^(١) كما توقفت معرفة التولد على معرفة الحقيقة، فالتوقف إذن هو في عالم المعرفة والإثبات - وهو محل كلامه وبجته - وليس في عالم الثبوت كي يجب بانه لا دور في عالم الثبوت إذ يقال مطابقة الأفكار البسيطة للأشياء متوقفة على توليد الأشياء الخارجية لآثار في العقل، ولكن لا عكس إذ توليد الأشياء الخارجية للآثار في العقل ليست متوقفة على مطابقة الأفكار البسيطة للأشياء بل هي معلولة للأشياء الخارجية بنفسها.

والحاصل: انه خلط عالم الثبوت - حيث لا دور - فاجرى حكمه على عالم الإثبات مع انه دورى!

محصل نظريته: المعرفة مجهولة لا يعلم انها صحيحة!

ثالثاً: إن محصلة كلامه هي: إن المعرفة ليست إلا أمراً مبهماً مجهولاً غير معروف ولا معلوم!؛ وذلك لأن المعرفة متوقفة على المطابقة^(٢) والمطابقة متوقفة على توليد الأشياء الخارجية للآثار في العقل^(٣) وتوليد الأشياء الخارجية للآثار مجهول غير معلوم إذ من أين أن الأشياء الخارجية ولدت الآثار فلعله وهم أو منام فالمعرفة مجهولة أي اننا لا نعلم ان هذه معرفة أو مجهلة! أو صحيحة أو باطلة! إذ توقفت، بواسطة واحدة، على أمر مجهول تماماً!

ولذلك قال بعضهم: (ثانياً: رأى لو ك أن المعرفة تقوم في عناصر ثلاثة هي: العقل والأشياء المادية والأفكار، فنحن لا نعرف الأشياء الخارجية مباشرة بل نعرفها من خلال الأفكار التي تتولد في العقل نتيجة فعل الأشياء الخارجية.

وعليه فلا نستطيع أن نعرف إن كانت أفكارنا عن الصفات الأولية تطابق أو تشبه الأشياء الخارجية أو لا تشبهها، ومعنى ذلك أننا لا نستطيع أن نتأكد من أن معرفتنا حقيقية أو أنها صادقة على الأشياء التي تشكل موضوعاتها، وهذا أصل الشك في المعرفة).^(٤)

(١) تولد الأفكار العقلية من آثار الاشياء الخارجية.

(٢) إذ قال (ولذلك تكون معرفتنا حقيقية بمقدار ما يكون هناك توافق بين أفكارنا وحقيقة "واقع" الأشياء).

(٣) إذ قال (ان الأفكار البسيطة مطابقة للأشياء، ذلك لأنها ليست من صنع العقل بل هي ما تولده الأشياء الخارجية من آثار في العقل).

(٤) الفلسفة الحديثة ص ١٨٢.

منشأ المعرفة التطابق، والتطابق عقلي فالمعرفة عقلية

رابعاً: إن مرجع كلامه إلى أن منشأ المعرفة هو معرفة التطابق بين الأفكار والأشياء، لكن معرفة التطابق بينهما أمر عقلي وليس بحسي وذلك لوضوح أن أحد طرفي المقارنة هو الأفكار وهي ذهنية عقلية غير حسية في حد ذاتها أبداً فكيف تكون الإضافة المتقومة بطرفيها. وأحدهما ذهني محض . حسية؟ وإذا كان التطابق عقلياً كانت معرفته عقلية بالبداهة.

وعلى أية حال: فإن محصلة كلامه ونتيجته بل وصريحه: أن معيار المعرفة الحقيقية^(١) هو التوافق بين الأفكار والأشياء، فنقول: إن التوافق والتطابق لا وجود له في الخارج ولا يحس بإحدى الحواس الخمس بل هو من المعقولات الثانية الفلسفية التي مضى الكلام حولها، بل إنه لدى الدقة من المعقولات الثانية المنطقية، لكن بوجه آخر^(٢)، وإذا كان التوافق كذلك (لا وجود له بالخارج ولا يحس بالحواس الخمس) وكان هو معيار المعرفة الحقيقية كانت المعرفة غير حسية أبداً، بل هي عقلية، وإن كانت المواد التي وصلت إلى العقل كلها حسية، فكيف لو لم تكن تلك المواد أساساً حسية؟^(٣)

حصر المعرفة بالرياضيات والمنطق

خامساً: ما ذكره بعضهم (إذا كانت المعرفة إدراك توافق أو عدم توافق أفكارنا، فإنها ينبغي أن تقتصر على الرياضيات والمنطق، لأنه لا شيء يستوفي هذا التعريف إلا القضايا الرياضية والمنطقية، ولذلك يسلم لوك أن ما نعرفه حقاً ضئيل جداً ولا يمكن أن يفني بمطالب الحياة الفعلية)

وبعبارة أخرى فان كل العلوم التالية ونظائرها ليست بمعرفة حسب نظرية لوك: الطب، الفلك، الفيزياء والكيمياء، علم السياسة والاقتصاد والاجتماع والإدارة والحقوق وغيرها، وهل يمكن ان يلتزم عالم بذلك؟ وسوف نبحت هذه النقطة لاحقاً بإذن الله تعالى.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

(١) حيث قال (ولذلك تكون معرفتنا حقيقية بمقدار ما يكون هناك توافق بين أفكارنا وحقيقة "واقع" الأشياء).

(٢) فإن التوافق والتطابق من (جهة الواقع للأفكار) هو من المعقولات الثانية الفلسفية إذ الاتصاف في الخارج والعروض ذهني، ومن (جهة الأفكار للواقع) هو من المعقولات الثانية المنطقية إذ كلاهما ذهني.

(٣) وذلك كالرياضيات والمستقلات العقلية وغيرها.